التقاليد المعمارية للمسكن الريفي في الأندلس والمغرب وتلمسان

(دراسة مقارنة من خلال بعض النماذج)

رابح فيسة محمد

أستاذ محاضر قسم الآثار . جامعة تلمسان

مقدمة :

لقد واكب تطور العمارة بشكل عام، والعمارة السكنية بشكل خاص،عنصر الإنسان الذي دفعته حاجاته الطبيعية إلى التجمع والاستقرار ، ويمكن أن يقرأ تطور الإنسانية بأكملها في سِجل الحلول السكنية التي ما فتئ الإنسان يطورها تبعا لمعطيات تقدمه الاجتماعي والصناعي والعلمي والمعرفي،وبما أن الثقافة في مفهومها العام تعني علاقات الإنسان بعالمه المحيط، تصبح العمارة التجسيد المادي الأبرز لثقافة الإنسان ولمقدرته على التكيف مع التقدم الذي يحرزه في شتى مجالات الحياة، لذا فإن استقرار الإنسان خاصة البدوي في البداية كان في الكهوف والمغارات كما عبر ابن خلدون عن ذلك في مقدمته بأن أهل البدو يأوون إلى الغيران والكهوف وهؤلاء هم سكان المد اشر والقرى والجبال وهم عامة البربر والأعاجم، ومع تحول نشاط الإنسان نحو الزراعة، هجر تلك المغارات واتّجه نحو الأراضي التي تنتج قُوته ليستقر فيها، ويبني بيوتا من المواد الموجودة بين يديه :كالماء والقش والتراب في السهول، أو الحجارة وأغصان الأشجار في الجبال[1]،ليتطور فيما بعد مفهوم هذه البيوت والسكنات التي نجدها اليوم في شكل تجمعات تقليدية بسيطة، يطلق عليها في الكثير من الأحيان مصطلح القرية أو الدشرة أو حتى الدوار في المفهوم الشعبي ،والتي تكون في مجملها مجموعة من المنازل والمساكن التي تجمع سكانها علاقات اجتماعية قوية ترتسم من خلالها المعالم الأولى للحياة الريفية .

عوامل تكون التجمع السكني في الريف :

إن المسكن الريفي في داخله هو جزء من محمية كبيرة و المتمثلة في القرية ،حيث تشكل في مجموعها المجتمع الكبير الذي يضم سكان هذه البيوت ،ولدراسة المسكن بشكل مستقل لابد من دراسة القرية أولا كتكوين عام والأسباب والظروف التي أدت لهذا التكوين،فلو نظرنا إلى المخطط العام لأي قرية لوجدناها غير منتظمة بشكل هندسي معين أو مسبق وإنما نلاحظ هذا النمو العفوي لنسيج القرية حيث نرى المنازل متلاصقة ومتداخلة مع بعضها ومتراكمة ،ونلاحظ الأزقة والدروب الضيقة والمتعرجة ولهذا التركيب والتلاصق أسباب وعوامل نوردها فيما يلي :

أ- العامل الديني:

تحث الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في كثير من المواضع المؤمنين على التراحم والترابط فيما بينهم، وأن يكونوا كالبنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضا، ولذلك فإن تداخل البناء وتماسكه جزء من الأدب العمراني الإسلامي،ومن الطريف في القرى والأرياف التي تتداعى مبانيها اليوم بسبب الإهمال وعدم الصيانة أنها عندما تنهار الدار الواحدة فإن الدور الأخرى المحيطة بها والملاصقة لها تبدأ هي الأخرى بالتآكل والانهيار التدريجي،وذلك بفعل الاشتراك في الحوائط والسقوف والأسس وقد تكون توصية الرسول صلى الله عليه وسلم للمؤمنين بتقديم المعونات بعضهم لبعض مثل السماح للجار بغرز خشبه والاشتراك في الجدران هي العامل الأساسي في نشأة هذا التلاحم بين المباني الذي يغلب طابعه على القرى والأرياف[2].

ب- العامل النفسي للإنسان:

يميل الإنسان بطبعه إلى تكوين مجتمع متحضر يدافع عنه ويحميه، وهذا ما دفع السكان إلى تكوين تلك التجمعات السكنية المتلاحمة البنيان على المستويين المعنوي والمادي ،حيث أننا نجد الروابط الأسرية والعلاقات الاجتماعية متجذرة في تلك القرى ،تغذيها العديد من العوامل والأسباب مثل العمل المشترك في الحقول وجني المحاصيل ،وكذا حضور المناسبات السنوية والاحتفال بها جماعيا[3].

ج- العامل الاجتماعي:

يتفق بعض الباحثين مع ما يراه ابن خلدون أن البيت هو مهد العصبية[4]، ففيه تنشأ أواصر القرابة وهو الذي يجمع أعضاء العائلة الواحدة التي تعتبر نواة التركيب الاجتماعي التي تكون فيها العصبية في أشد قوتها ثم تتدرج إلى أن تتلاشى فعصبية الأبوة والبنوة أقوى من عصبية الأخوة وهذه أقوى من العمومة وهكذا،ويقابل هذا التدرج الاجتماعي تدرجا فضائيا داخل الحي السكني الواحد، حيث تتجسد قرابة النسب في قرب المكان أو الجوار الذي يثبت مدى التلاحم الأسري[5]، فالبيت الذي ينشأ على أساس الأسرة النووية (الأب،الأم) يتوسع بعد سنوات للأبناء والبنات ،ويزداد توسعا بعد زواج الأبناء وقد يجتمع لذلك في البيت الواحد المتسع عدة أجيال،كما أننا نلاحظ من خلال العلاقات الاجتماعية في القرية بأنها متينة وقوية ومتحررة نوعا ما،وهذا الشيء كان نتاجا لعاملين أساسيين هما:

العامل الأول: هو صلة القرابة التي تربط سكان القرية ، فمعظم سكانها تجمعهم روابط وأواصر أسرية متينة،وذلك عن طريق المصاهرة والتزاوج مما أدى إلى توطيد العلاقات الاجتماعية في القرى الريفية بصفة عامة [6].

العامل الثاني:

هو احتكاك سكان القرى ببعضهم البعض من خلال ممارسة النشاطات الفلاحية التي تحتاج إلى أيادي عاملة كثيرة وخاصة عمل النساء الذي أدى إلى نوع من الانفتاح الاجتماعي[7] ،حيث كانت المشاركة في العمل تؤدي إلى الخلط بين الجنسين والتقائهم ببعضهم البعض ،مما أثر في البيت الريفي بحيث أننا لا نجد فيه حواجز بين قسم الرجال والنساء ،وإنما يشكل البيت فراغا واحدا يستخدم للنوم والطعام والمعيشة ،وهذا الاندماج الاجتماعي جعل القرية تعتبر عائلة

واحدة والداخل إلى بيت من بيوتها يعتبر فردا من أفرادها ،وهو ما اشتهرت به أرياف كثير من المدن الهامة في التاريخ الاسلامي ،كتلك المنتشرة في الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط كبلاد الأندلس والمغرب الكبير.

المواصفات العامة للمنزل الريفي بالأندلس والمغرب وتلمسان :

لقد أظهرت لنا عملية المقارنة التي قمنا بإجرائها بين مخططات معمارية لمنازل ريفية من الأندلس(**) والمغرب(***) وتلمسان[8] (المخططات4،1،2،3)، أنها اتبعت نفس التقاليد المعمارية ،والتي تظهر لنا جليا من خلال شكلها الخارجي أين نجد فيها الأسقف تظهر بشكل مسطح (الصور:1،2،3) واستعملت فيها مواد بناء بسيطة اعتمد فيها على المواد المحلية التي تميز سائر المناطق الريفية ،أما عن المداخل الرئيسية لهذه المنازل فيبدوا أنها مداخل بسيطة خالية من الزخارف والعقود ،أما عن الشكل الداخلي للمسكن فقد احتوى نفس الأقسام المعمارية ،فقط يكمن الاختلاف في موضع هذه الأقسام من المنزل وفي بعض الأحيان تختلف التسمية أو المصطلح الخاص بها ،وقد تبين لنا من خلال الجدول الذي قمنا فيه بمقارنة أقسام المسكن الريفي في كل من الأندلس والمغرب وتلمسان أن نفس المخططات تتكرر غير أن شكلها الداخلي غير منتظم ،كما أن توزيعها يختلف حسب مساحة المنزل ،فهي تتكون في مجملها من الغرف الخاصة بالنوم والضيافة التي تنتشر حول الفناء أو ما يعرف ب (الحوش) في لغة أهل المغرب وتلمسان ولا بد من الإشارة هنا إلى أن عدد الغرف في المنزل الريفي يزيد وينقص من مسكن إلى آخر وذلك راجع إلى عدة أسباب، لعل أبرزها عدد أفراد الأسرة الريفية الذي يبلغ أحيانا عشرة أفراد، ففي كثير من الأحيان تضم العائلة الواحدة عدة أسر والتي تكون مكونة من الأبناء والآباء بالإضافة إلى أرباب العائلة المثلين في الأب والأم ، كما أن الحالة المادية للعائلة تتحكم أيضا في حجم المنزل ومساحته فكلما كانت الحالة المادية مريحة كلما وجدنا أكبر عدد من الغرف وأحيانا عدد الطوابق التي لا تزيد عن الطابق بطبيعة الحال ،كما أن عنصر المطبخ في المنزل الريفي يعتبر من بين أهم العناصر في مخططات المنازل الريفية والذي نجده بأشكال مختلفة وفي بعض الأحيان يضم المنزل الواحد عدة مطابخ (المخطط رقم :1،2) ،ويضم المطبخ في داخله عنصر الموقد الذي يستعمل للطهي وفي بعض الأحيان للتدفئة علما بأن الكثير من العائلات الريفية تستغل وقت الغداء أو العشاء وهي مجتمعة داخل المطبخ خاصة في أيام البرد القارص،وتنتهي هذه المواقد بمداخن يمكن ملاحظته من خلال المظهر الخارجي للمنزل ،وقد احتوى المنزل الريفي في قرى بني سنوس عنصرا هاما في حياة المجتمع الريفي ألا وهو عنصر الاسطبل كما أن المنزل المغربي أيضا ضم هذا العنصر الحيوي الذي يستعمل في إيواء الأغنام والأبقار التي تشكل مصدر رزق هام بالنسبة لسكان القرية ،أما عن مخطط المنزل ببلاد الأندلس فلم يضم عنصر الاسطبل لعل العلة في ذلك هو ربما استعمال أهل الأندلس هذا العنصر بمعزل عن المسكن الرئيسي،كما أن المنازل في الريف التلمساني استعملت فيها الطوابق وحتى في المغرب غير أن مخطط منزل الريف الأندلسي اعتمد على طابق واحد في النموذج الذي بين أيدينا ،حتى أن عنصر الفرن في المنزل المغربي جاء خارج المنزل بينما في المنزل الريفي بتلمسان نجده داخل المطبخ ولا يظهر له موقع داخل المنزل الريفي بالأندلس نتيجة استعماله ربما في الخارج، وقد اعتمد سكان الريف التلمساني والمغربي المياه الطبيعية من الأودية والأنهار المجاورة للقرى في حياتهم اليومية بينما نجد أن عنصر البئر في منزل الريف الأندلسي هو من العناصر الأساسية فيه، ويظهر عنصر الغار كما يسميه سكان بني سنوس أو القبو في مخطط المنزل الريفي بتلمسان

،في حين أن المنزل الريفي المغربي والأندلسي يخلوا من هذا العنصر ولعل الاختلاف في التكوين الداخلي للنماذج الثلاث تحكمت فيه الطبيعة والمحيط وكذا الفكر العمراني المتفاوت المستوى بين بلاد المغرب عامة وبلاد الأندلس خصوصا ليس ذلك فقط في العمارة السكنية، وإنما نجد هذا الاختلاف حتى في أنواع أخرى من العمارة .

وقد شاع استعمال نفس المخططات المعمارية للمنزل الريفي حتى في الجهة الشرقية من بلاد الجزائر أين توجد منطقة القبائل الكبرى ،فقط يكمن الاختلاف في تسمية الأقسام المكونة للمنزل وفي توزيعها في بعض الأحيان ، إذ أننا نجدها باللغة الأمازيغية التي تمثل اللغة الرسمية لسكان منطقة بجاية(****)الذين استوطنوا القرى والمد اشر التي تنتشر عبر كامل منطقة القبائل الكبرى ، وقد اخترنا منها نموذجين للتدليل على أن نفس النسق المعماري تداوله سكان المنطقة (المخطط رقم: 5) ،فمثلا الفناء نجده يتقدم الأقسام الأخرى من المنزل ويسمى (أمراح)، كما أن الفضاء الخاص بالحيوانات أطلق عليه بالأمازيغية إسم (أداينين)، والذي يقابله في المخططات الأخرى عنصر الإسطبل ،ولدينا عنصرا آخرا يشبه في وظيفته عنصر الفناء وهو من بين العناصر الهامة في المنزل الريفي ببلاد القبائل الكبرى ألا وهو الفضاء الخاص بالنشاطات اليومية والذي أطلق عليه مصطلح (تغرغرت)[9]،وسمي الفرن بالكانون وجل العناصر الموجودة في المنازل الريفية نجدها في المنزل الريفي في الشرق الجزائري فقط تتغير التسمية التي كما ذكرنا سابقا أنها تكون باللغة الأمازيغية ،و هكذا فإن جل العناصر المكونة للمنزل الريفي تتشابه من حيث الشكل وموقعها من الدار حتى وإن اختلفت تسميتها ،وهذا إن دل فإنما يدل على مدى تمسك سكان الريف بالنسق المعماري الذي أملته عليهم الظروف الطبيعية والعادات والتقاليد، التي جعلت من المنزل الحلقة الرئيسية التي تتكون فيها حركة الفرد مع المحيط الذي يعيش فيه ،وقد خضعت الكثير من تلك المنازل الريفية إلى تعديلات سببها الحالة الاجتماعية للأسرة الريفية والحالة المادية لها، وهذا ما يبدوا جليا من خلال النماذج التي قمنا بدراستها في قرى بني سنوس.

خلاصة :

يظهر لنا من خلال ما سبق ذكره بأن عناصر التصميم في المسكن الريفي تتكامل مع الفكر التصميمي لها،فقد اتخذ المسكن الريفي خصائص معمارية تقليدية تمتاز بالبساطة والاعتماد على ما هو محلي من المواد الطبيعية والإبداع في استعماله ، كما يظهر ذلك من خلال النماذج المدروسة والتي نجدها احتوت بعض العناصر الحيوية التي اختفت في المنزلين الأندلسي والمغربي في منطقة الريف ،فعنصر القبو مثلا يعتبر من بين أهم هذه العناصر التي لا نجدها في تلك المنازل،وأما عدم وجود عنصر البئر في مساكن قرى بني سنوس عائد إلى وفرة المياه والعديد من المصادر الطبيعية التي تتوفر عليها المنطقة،أما عن باقي العناصر كالفناء والمطبخ فهي من بين الخصائص العامة التي تشترك فيها جميع المنازل الريفية في القرى والمد اشر بحكم الوظائف التي تمارس فيها ،وقد أثبتت المواد التقليدية كفاءتها وقدرتها على التكيف مع المحيط الخارجي ،كما استطاع سكان الريف إثبات جدارتهم في تطويع المواد المحلية في إيجاد حلول حقيقية في توظيفها والاستفادة منها لأقصى الحدود وبتقنيات بسيطة ،وبالتالي الوصول إلى تحقيق شكل إنشائي خاص يلبي حاجات العمران الريفي ومتطلباته.

الجداول والأشكال:

المنزل / مكونات المنزل	منزل الريف التلمساني	منزل الريف المغربي	منزل الريف الأندلسي
الفناء (الحوش)	×	×	×
الغرف	×	×	×
الطوابق	×	×	
المطبخ	×	×	×
الاسطبل	×	×	
الأروقة		×	×
الفرن		×	
البئر			×
الميضأة			×
المخزن	×	×	×
الغار (القبو)	×		
السقف المسطح	×	×	×

جدول يبين عملية المقارنة بين مخططات المنزل الريفي بالأندلس والمغرب وتلمسان (من إعداد الباحث)

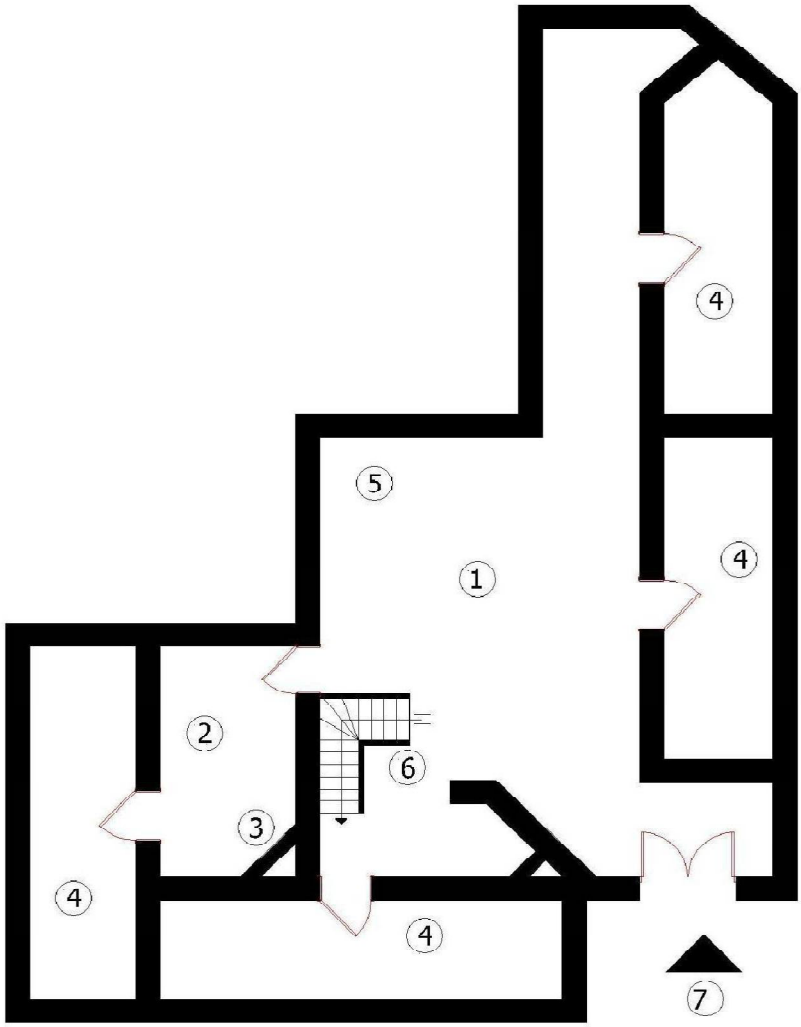

1- فناء
2- مطبخ
3- مدخنة
4- غرفة
5- إسطبل
6- درج
7- مدخل

مخطط رقم: 1 الطابق الأرضي لدار باسعيد بـ بأولاد موسى قرية الخميس من إعداد الباحث

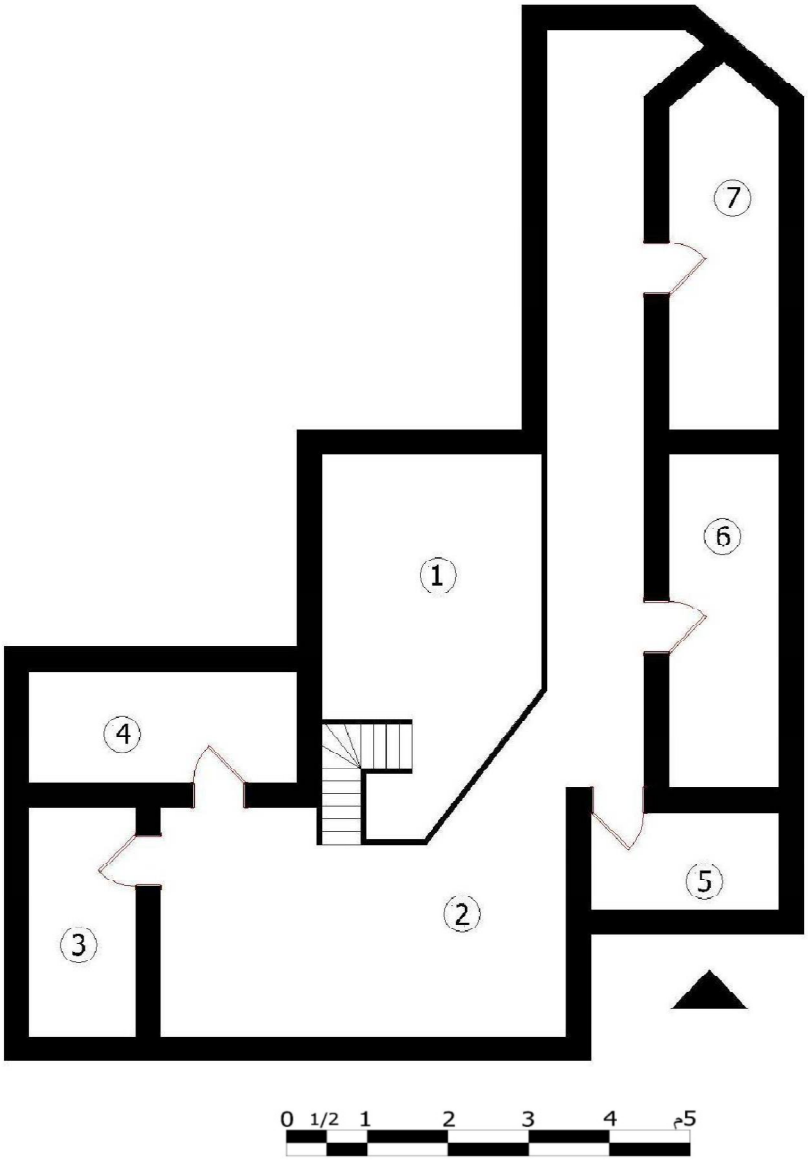

1- فناء
2- سطح
3- غرفة
4- غرفة
5- غرفة
6- غرفة
7- غرفة الضيوف

مخطط رقم:2 الطابق العلوي لدار باسعيد بـ بأولاد موسى قرية الخميس من إعداد الباحث

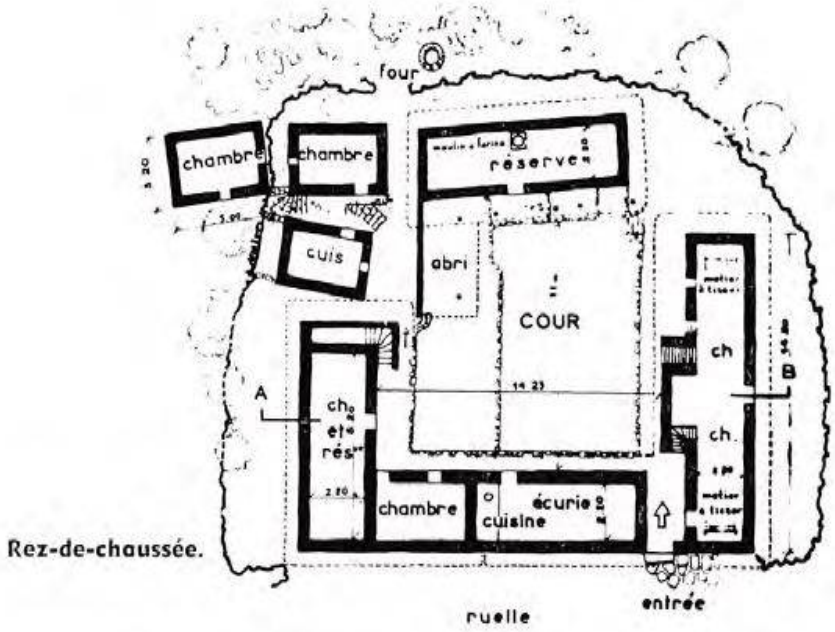

مخطط رقم:3 مخطط لمنزل بمنطقة الريف المغربي عن: Luca Ortelli ,Bruno - Marchand,Marielle Savoyat,Typologie de logements marocains,p74.

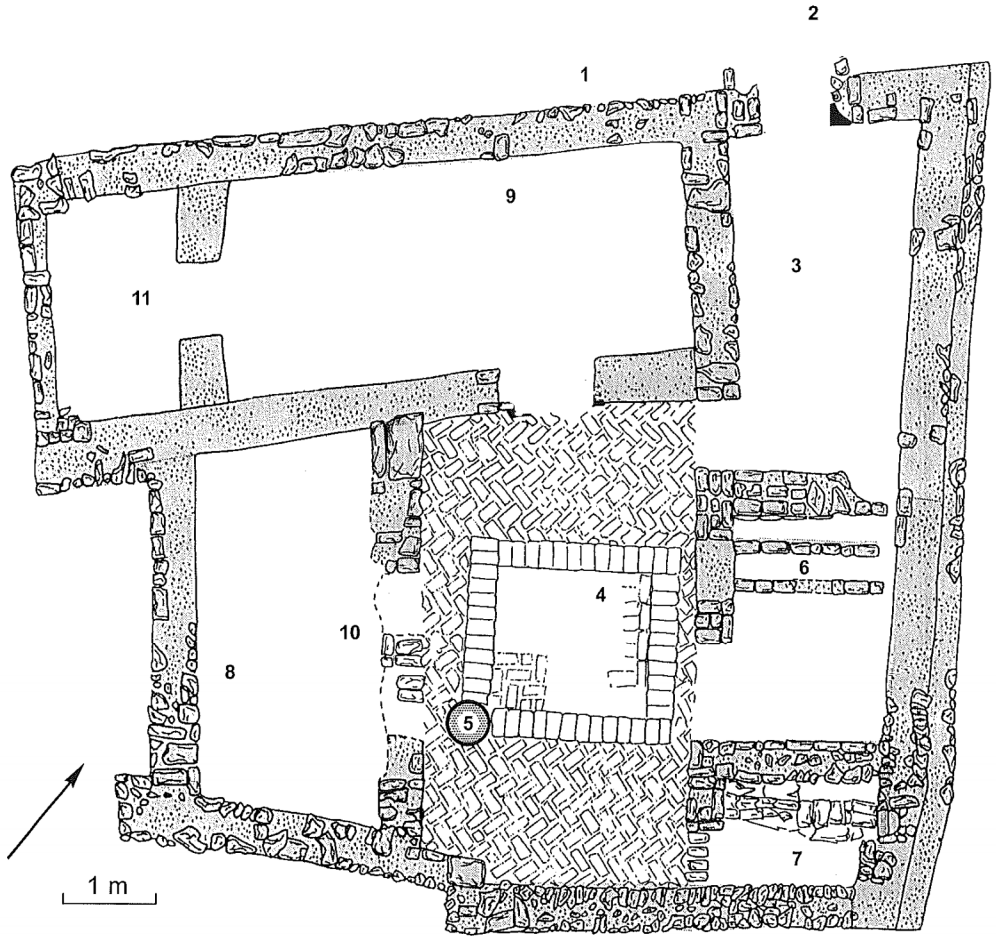

مخطط رقم : 4 مخطط لمنزل ريفي بمنطقة هولفا بالأندلس الغربي (بتصرف)

عن: André bazzana, La maison rurale dans la…p.218.

1- طريق
2- المدخل
3- رواق
4- الفناء
5- بئر
6- المطبخ ومخزن المؤونة
7- الميضأة
8، 9 - غرف
10- مدخل بيت الضيافة
11- غرفة نوم

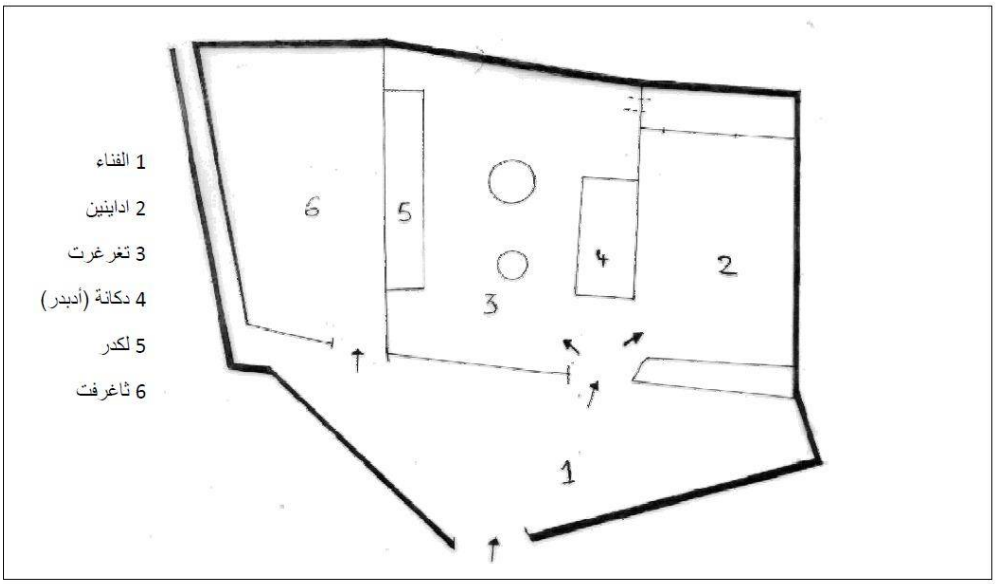

مخطط رقم:5 مخطط لمنزل بربري من منطقة (أثروثن بني معوش) بريف بجاية بالشرق الجزائري
عن:(عزوق عبد الكريم)

الصورة رقم: 1 المنزل الريفي بالأندلس (منطقة تريفيليز) عن.José Luis Garcia-grinda ,p60

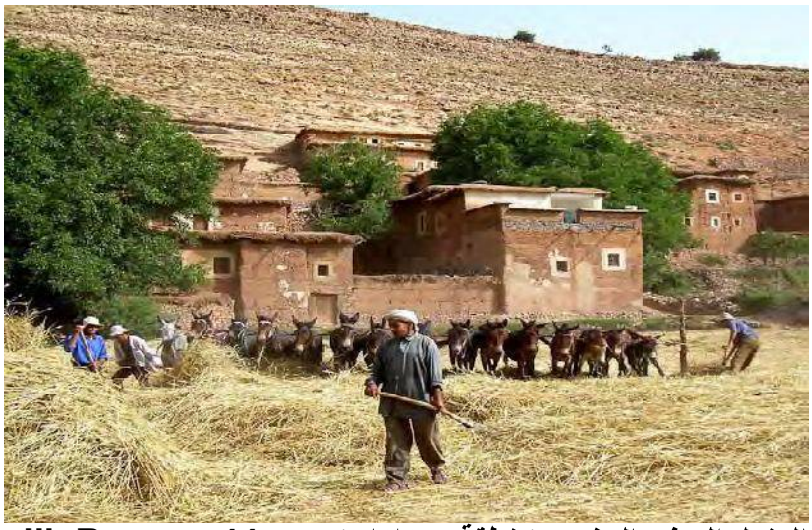

الصورة رقم:2 المنزل الريفي المغربي(منطقة ورزازات) عن:.Luca Ortelli ,Bruno,p44 -

الصورة :1 منزل ذوا طابق بسقف مسطح من قرية الخميس

الاحالات و الهوامش:

1- عبد الرحمان ابن خلدون،**كتاب المقدمة**،تحقيق:عبد السلام الشدادي ،ط1،بيت الفنون والعلم والآداب ،الدار البيضاء ،2005،ص،67،193.

وانظر:- روافد، الاستثمار في الموارد الثقافية،**سلسلة الموارد الثقافية في وادي النضارة ،العمارة التقليدية**،دمشق ،سورية،بدون سنة،ص1،-

غوستاف لوبون، **حضارة العرب**،ترجمة:عادل زعيتر ،ط4،دار إحياء الكتب العربية،مصر،1964،ص.352،353

2- مصطفى بن حموش، **جوهر التمدن الإسلامي دراسات في فقه العمران الإسلامي**،ط1،دار قابس ،لبنان ، 2006،ص51. وانظر:-

- Luca Ortelli ,Bruno Marchand,Marielle Savoyat,**Typologie de logements marocains ,Modèles d'habitats entre persistances et mutations**, Lausanne, Février 2011,p77.

3- عهد خزام، **العوامل المناخية والبيئية وأثرها على تطوير المسكن الريفي(المنطقة الساحلية مثالا)**،مجلة جامعة البعث،المجلد24،العدد 4،دمشق،بدون تاريخ. ص.140

4- ابن خلدون ،**مصدر سابق**،ج1،ص216. وانظر: - مصطفى بن حموش،**مرجع سابق**،ص26. - مصطفى التليلي،**قفصة والقرى الواحية المجاورة حول الحياة الجماعوية من بداية القرن** 18 **إلى** 1881،**جمعية صيانة مدينة قفصة** ،2009،ص137.- مصطفى شاكر ،**المدن في الاسلام**،حتى العصر العثماني،ط1،ج2،دار السلاسل الإسلامية،1988،ص52.

- Luca Ortelli ,Bruno Marchand,Marielle Savoyat,**op-cit**,p77.

-CORPUS, Architecture traditionnelle méditerranéenne, **Maison urbaine -5style arabo-andalou ,Maroc,2001,p.2.**

6- Luca Ortelli ,Bruno Marchand,Marielle Savoyat,**op-cit**,p27

7 - عهد خزام،**مرجع سابق**،ص142،انظر:- شويشي زهية،**مجتمع القصور،دراسة في الخصائص الاجتماعية والعمرانية والثقافية لقصور مدينة تقرت**،مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الريفي،جامعة منتوري ،قسنطينة،2005- 2006،ص21،- كريمة بوحريق،**تغير البناء العائلي في**

المجتمع الريفي الجزائري،دراسة ميدانية بريف الأبيار بلدية الحاسي(ولاية باتنة)، مذكرة ماجستير في علم الاجتماع الريفي،جامعة الحاج لخضر باتنة،2009- 2010،ص78.

- لتفاصيل أكثر عن مواصفات المنزل الريفي بالأندلس أنظر:- يحي أبوا المعاطي محمد عباسي،الملكيات الزراعية وآثارها في المغرب والأندلس(238- 488هـ)(852- 1095هـ)،ج1،أطروحة دكتوراه ،قسم التاريخ الإسلامي جامعة القاهرة،القاهرة،2000.ص851.

-André bazzana**, La maison rurale dans la péninsule ibérique :un atelier d'ethno-archeologie**,in ruralia4,(pamatky archeologické-upplementum15),prague,p.216.

- José Luis Garcia-grinda, **Connaître l'architecture traditionnelle pour la mettre en valeur, L'architecture traditionnelle méditerranéenne Territoire, paysage et architecture traditionnelle**,in,la Connaissance, p50**.**

- لتفاصيل أكثر عن مواصفات المنزل الريفي بالمغرب أنظر:

-Mickael peyron, **Habitat rural et vie montagnarde dans le Haut Atlas de Midelt, Maroc,** In: Revue de géographie alpine. Tome 64, N°3 1976,. pp. 327-363.

- J.-P. Molénat et J. Passini, **L'emploi de la terre dans la construction en nouvelle castille à la fin du moyen âge, L'architecture de terre en méditerranée,** Seri colloque et séminaire N°80, Publications de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines –Rabat, sans date, p122.

8- **مدينة تلمسان مدينة تقع بالغرب الجزائري وتبعد عن العاصمة الجزائر بحوالي** 550**كلم،وقد اعتبرها الزيانيون عاصمة لهم ،فهي مهد حضارتهم ومركز حكمهم** .انظر في ذلك، محمد رمضان شاوش، **باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان** ،الجزائر1985،ص25،- **محمد عمرو الطمّار، تلمسان عبر العصور، الجزائر**، 1984م،ص45،46.

- مدينة بجاية تقع في الشرق الجزائري ضمن ما يعرف بمنطقة القبائل الكبرى،ولها مكانة تاريخية مرموقة في تاريخ الإمارات الاسلامية التي قامت في بلاد الجزائر، وقد تحدثت عنها الكثير من المصادر والمراجع ،نذكر منها:- البكري،المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب،بغداد،بدون سنة،ص82.- **الإدريسي،نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**،ليدن،1864،صص،90- 91.- **عزوق عبد الكريم، المعالم الأثرية الإسلامية ببجاية ونواحيها(دراسة أثرية)** ،أطروحة دكتوراه في الآثار الإسلامية ،معهد الأثار،جامعة الجزائر،2007- 2008، ،ص.8،10

9- **عزوق(عبد الكريم) ، مرجع سابق** ،ص116،117.